

أسئلة في الحرية والحق ثم الدعوة للتطبيع في ظلها

قرأه: شريف الربيعي



الكتاب:

الحرية بين الحد والمطلق

الكاتب: سري نسيمة

الناشر: دار الساقى

يقول الكاتب الفلسطيني سري نسيمة في مقدمة كتاب «الحرية بين الحد والمطلق» الصادر حديثاً عن دار الساقى أن الظرف الأول الذي حثه على كتابة ما كتب وهو الأساس: توق الشعب الفلسطيني الى الحرية.

ويضيف انه يملك توجهها فكريا اساسيا، بدأ كمجموعة ينابيع تفجرت من هنا وهناك، ثم تجمعت، ليس دفعة واحدة وإنما بالتدريج، ولأزمت اهتمامات الكاتب العملية المتطورة بتطور القضية الفلسطينية، من منطلق الإنسان الذي أصبح واعياً ضرورة تحقيق الحرية السياسية والوطنية. أما هدفه فهو الأمل بأحباء نقاش هادئ وهادف في أوساط المثقف العربي. ويأتي الكتاب في اثني عشر بحثاً هي فصوله التي لا تحمل عنواناً ولكن يدل عليه التفصيل في سياق السرد عن مواضيع في فهم الحرية ومعناها والحق والعدالة والمساواة.

المبحث الأول: يسأل عن معنى كون الحرية حقاً. المبحث الثاني: يعالج معنى الحرية كمعنى ثابت هو التحرر من القيود المانعة. المبحث الثالث: عن أسس التمييز في ثبات معاني الحرية وتميزها عن المفاهيم التي قد تتغير. المبحث الرابع: أمثلة غيبية لأفاق الحرية والامتدادات الشرعية لممارستها.

المبحث الخامس: يسأل في سياق التحليل. هل هناك حقوق طبيعية تختلف عن الحقوق التاريخية والوضعية. المبحث السادس: محاولة وضع مقاييس للحديث عن الخير والشر، أو الكلام على ما ترتبه أو نستمرجه لأنفسنا. المبحث السابع: عود للتأكيد بأن كون الصفات غير مادية لا ينفي عنها كونها طبيعية. وعن طبيعة الإنسان فرداً أو جماعة. المبحث الثامن: لتحديد هوية الإنسان (والمجتمع) كفضة أو كمجموعة أفعال ارادية. المبحث التاسع: يبحث في إثارة قضية انتماء الفرد الى النوع الانساني أو الى المجتمع الأوسع، كيف يمكن التوفيق بين الذات الفردية والجماعية؟ المبحث العاشر: توضيح العلاقة بين الفرد والمجموع كعلاقة ترتكز طبيعياً الى النزعتين الذاتية والعصبية. المبحث الحادي عشر: التطرق من جديد الى التطور السياسي في مفهومي الحرية والسيادة لدى المجتمع الدولي. المبحث الثاني عشر، وهو الخاتمة: يحاول الكاتب تطبيق المفاهيم النظرية التي يسوقها في بحثه على الوضع الفلسطيني الحالي، وعلى ان شرعية النظام تكمن في سيادته.

يطرح الكاتب في بداية الفصل الأول «المبحث» سؤالاً حول الحرية ودخولها في تفصيلاتها، هل توجد لها صفة أخلاقية، أم هل هي قيمة أخلاقية طبيعية؟ هل صفتها الأخلاقية مكتسبة. ويمضي مع السؤال محاولاً ملامسة ما هو تحديد لمعنى الحقوق الطبيعية وكأنه يسأل: هل يوجد للإنسان صفة أو صفات أو مواصفات طبيعية، هل الحرية وضع مكتسب، هل هي غريزة كما يقول بعض علماء الاجتماع، أين تكمن أهمية التعريف بالحرية لممارسة وسلوك أخلاقي وإيضاً في الممارسة الاجتماعية المحكومة بقوانين الحياة الاجتماعية. في هذا المناخ من التداعي يأتي سؤال الكاتب: هل في الإمكان ان تكون الحرية خيراً بالطبيعة ولكن ليس كلها؟ هل يمكن ان يكون بعض الحرية شراً. هل الأغرأق في الحرية (في حرية معينة مثلاً) يخرجها عن كونها حرية؟ ان كانت الحرية، ان تفعل ما تريد فهي قد تبرر قتل إنسان واعتبار فعل القتل خيراً. يقول الكاتب: «قد يرد أحدهم: ان هذا تمادياً في الحرية» ولكن هناك من يقول والكلام للكاتب نسيمة: «ان المخرج من التناقض واضح، وهو ان نسال: هل الحرية حقك أنت أم هي حقك والآخرين، أم هي حق الإنسان العام؟»

عن هذا التساؤل نجد اجابة في المفاصل التالية: أولاً، ان الحرية هي من حقوق الإنسان الطبيعية. ثانياً، الخير صفة طبيعية لها. ثالثاً، الصفة لكلها وليس لبعضها. رابعاً، لا تتغير الصفة الا اذا تغير الشيء. خامساً، ان الشيء قد يتغير بالاغرأق فيه. سادساً، ان الحرية لا تتغير عن كونها

حرية بحسب الزيادة او الاغراق.

لقد كان المفكر الفرنسي جون بول سارتر يؤكد ان الحرية قيد، وهو شرط الحرية، انها ليست حقك وحقي. ولكن: «هي من حقي شرط ان لا تتعدى على ما هو حقك او ان تنال منه» الشرط هنا هو قانون المانع، او الصيغة الفعلية التي تحد من كون الحرية صفة مطلقة.

يقول نسيمة: الحرية قد تقارن بها او تلزمها القيود. ولكن القيود خارجة عن مفهوم الحرية، وليست جزءاً من طبيعتها. الحرية، بحسب طبيعتها، هي الحرية مطلقاً وبدون قيود» وهذا تفسره صفات الفعل في الخير والشر دخولاً وخروجاً على مفهوم الحرية في المماسمة بمعنى كما نقرأ في تحديد الحق الطبيعي، حيث الحرية بلا شرط، ثم الشرط يعرض كجزء من المحمول من خارج. يكون قتلي فلانا ما من الناس ممارسة لحرיתי، ولكن بما ان ممارستي لحرיתי هي خير بشرط الا تخل بالواجب، لا يكون عملي خيراً. وفي الفصل الثاني بداية السؤال العام الذي يطرحه الناس: ما هي الحرية: ان سالك أحدهم «ما هي حرية التعبير في رأيك؟» قد تجيب فتقول انها الحرية التي لا تسمح بالتشهير والشتيمة والمس بالشعور والتي تسمح لك بأن تعبر عن رأيك بصراحة فيما عدا ذلك. ويقول الكاتب من الناحية الفلسفية مميّزاً بين الحرية بحد ذاتها والحرية المعمول بها او المطالب بتطبيقها تقبيماً للحرية المعمول بها ليس فقط من منظور الحرية المطالب بها بل أيضاً من منظور يعلو فوق المنظار الآني او الطبقي او المرتبط بمصالح معينة. في الفصل الرابع امثلة عينية عن معنى المطالبة بالحرية تتمحور حول النقاط التالية حيثما ترد في المعنى المحدد في المطالبة بحرية المرأة، بحرية التعبير، بالحرية السياسية، الحرية الأكاديمية، الحرية الوطنية، وحرية الفكر، وكل هذا ضمن استدلال على راحة ما يلي جواباً عن تلك المطالب بهيئة توضيح لمعناها في الممارسة الحياتية في الواقع وليس استحقاقاً في منطق التعليل تحت وطأة الظرف او حلول استثنائية في «منح» الحرية التي ألفنا سماع انها تؤخذ مثلما يطالب الكاتب بحرية أبناء شعبه وفك القيود عنهم سواء تلك التي وضعها الاستعمار أم جيش الاحتلال أم حتى الفئات المتسلطة المتعجرفة من أبناء شعبي - الكلام للكاتب.

وفي السياق سؤال عن الحرية في اطار ما للأخر من حق فيها السؤال يقول: نعتبر تشويه السمعة عملاً غير مشروع حتى وان لم يؤد فعلاً الى ضرر مادي يلحق بالشخص المعني. ثم قد يقال ان استعمال الالفاظ النابية في ازراء عقيدة احد من الناس قد يؤثر مادياً أيضاً في ذلك الشخص، اذ ان المس بشعوره قد يؤدي الى المس بصحته مثلاً (ان يغضب ويثور فيلحقه ضرر في صحته) فيما ان هذا الاحتمال وارد في قضية المس بالشعور، فلم لا نعتبر المس بالشعور، اذا كالتشهير بالسمعة حيث يكون الاعتبار هو احتمال الحاق اضرار مادية بالشخص المعني. وفي السؤال جوابه الذي يسعى لتحديد وضوحه في صعيد التطبيق والممارسة.

في الفصل العاشر حديث عن المساواة، ما هي أهمية فكرة المساواة؟ يجيب الكاتب على هذا السؤال بقوله: أهمية فكرة المساواة، اولاً، ان يدرك المرء ان الحق الذي يطالب به انما يتساوى مع حق الآخرين، وان انسانية الشخص توجد أيضاً في الأشخاص الآخرين.

وعن فكرة الزكاة في الاسلام يقول نسيمة «تشكل ممارسة الزكاة من

قبل المواطن جزءاً من الإيمان المتكامل، والذي يعتمد كأساس في مساواة الإنسان بأخيه الإنسان» ويرى الكاتب أن الحرية والمساواة هما الوجهان لعملية العدالة. فلا تتحقق العدالة بدونهما، ولا معنى لأحدهما دون الآخر. ويعود إلى الحديث عن أهمية نظام الزكاة فيقول: إن الذي تميز به الإسلام في نظام الزكاة، أنه أدخل إلى مفاهيم الإنسان ولأول مرة في تاريخه فلسفة توزيع الثروة على المجموع، ليس كصدقة، وإنما كواجب وقانون ضرائبي يعكس فهماً دقيقاً لعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان.

وفي المبحث الثاني عشر وهو الخاتمة، يدور الحديث حول فلسطين الثورة والبناء والاعتراف بالأخطاء وصولاً إلى «اتفاق أوسلو» ثم السلطة الوطنية الفلسطينية. وهنا يطالبنا الكاتب بأن لا ننساق في تيار ذلك المرض الآخر الذي طالما عانىنا، وهو مرض تحميل الغير مسؤولية أخطائنا. أياً من كان ذلك الغير. ويقول أيضاً: إن اللحمة بين الفرد والمجتمع، أو بين الذات الشخصية والذات الوطنية، وإن اختلفت هيئتها اليوم عن البارحة، فهي نوعياً لم تختلف، والمعادلة السليمة التي يجب أن تحكمها هي معادلة مبادئ الحرية والمساواة، أي إقران السعي من أجل تحقيق الوضع الأفضل للذات، بالسعي لتوفير تلك الحرية أو الإمكانية للغير. وعن التجربة الديمقراطية في الوطن العربي، أو منهجية التعامل مع الإنسان العربي كصاحب حق في بلاده، فقد اتخذت في العالم العربي حديثاً شكلاً «الصدقة» أو «التصدق»، وكان السيادة والحق أصلاً للحكومة والنظام.

ويقول الكاتب أيضاً: إن الوضع في العالم العربي، إنما هو حصيلة تجربة تاريخية معينة لم تكن لتفرز غير هذا الذي أفرزته. ويعود الكاتب في الصفحة 145 ليطرح السؤال مجدداً عن العدالة، وهو يراها في الجواب على معضلتها في السؤال أنها تكمن تحديداً في توفير المساواة إلى جانب توفير الحرية، فالعدالة التي تحدد حريتي الحق، هي تلك التي تضمن توفير تلك الحرية نفسها للغير - وهذا هو معنى المساواة. أما التحالفات التي كانت للثورة الفلسطينية في مدها الجماهيري ولم تكن تحكمها طبيعة أكثر من الحاجة الظرفية فيقول الكاتب: إن تحالفنا الطبيعي يجب أن يكون مع تلك المجتمعات التي تسودها مبادئ الحرية والمساواة، والتي تتصرف في علاقاتها الخارجية كذلك من هذا المنطلق. ويسوق ذلك المقياس في التعامل بديلاً لتلك التحالفات التي قامت مع التقدمية واليسارية والثورية والأشتراكية والشيوعية، فالعالم اليوم يقول نسبة: عالم جديد تساقطت فيه الكثير من الإقنعة والشعارات البراقة والزبد المزيف. ولكن المشكلة الأعوص في طريق مسيرة التقدم وبناء الإنسان الفلسطيني الحر الباحث عن علاقات وتحالفات جديدة في عالم اليوم هي إسرائيل. ويدعو الكاتب في ختام بحثه إلى التعاون بين الشعبين اليهودي والعربي، على مستوى التربية الثقافية والمسلكية، إذ أنه من غير الطبيعي أن تنشئ إنساناً فلسطينياً متناقضاً في طبعه ومسلكه، يستنشق ثقافياً من أدبيات تضج بالكلام على الكفاح المسلح مثلاً وعن العداوة الوجودية ودار الحرب، في الوقت الذي نتوقع منه أن يسير في خطى التطبيع أو قل التعايش السلمي بين الدولتين.

وهكذا يكون ختام البداية في الدعوة لفهم الحرية والبحث عن أسباب الروادع الأخلاقية في صيرورتها مطلقاً أو توهمها في فضائه، وفي مجال التدرج بحثاً عن العدالة والمساواة، يحضر التطبيع، ورغم أنه أصبح شعاراً أكثر من كونه حاجة إنسانية للتفاهم والتعايش فإن الظرف السياسي الذي كان يدفع باتجاه رؤية سابيائه، ما زال لم يتغير كثيراً. ومع ذلك فإن الكاتب سري نسبة، وهو واحد من أعضاء الوفد الفلسطيني المفاوض على السلام، ربما يملك إجابات يستطيع التمثيل عليها بنماذج كما فعل في دراسته حيثيات الجدل في مسألة الحرية سؤالاً وجواباً وإيضاحاً في إضاءة المعرفة. ولا يفوت الكاتب أن يذكرنا بأن كتابه قد تحقق له أن ينجز بتشجيع من معهد ودرو ويلسون للبحوث في واشنطن. كانت الأفكار معدة، ولكن المعهد وفر فرصة أن تتحقق الفعلية في العمل والإنجاز. وإذا كان لا بد من قول كلمة في الجهد الذي تحدث عنه كاتبه بتواضع فلا يمكن القول أقل في أنه مفيد، وربما يفتح نقاشاً أوسع حول المواضيع التي أثارها في الحرية ومستلزمات بناء الحياة في ظلها، إنه أيضاً بحث حوارياً بما يثيره من أسئلة قد تسلك منهجاً في التعبير يضئ أكثر ما فات الكاتب أن يعامله بوضوح تارة أو بتعسير فرضه المنهج الفلسفي في التعبير أيضاً في توخي الدقة في التعريف، وكذلك القسرية في منهج البحث، وكلها مستلزمات بحث حاول استتارنا في حوار أوسع. فهل سيكون له ذلك؟ ■